قواعد التفسير عند أبي إسحاق الزّجّاج (ت٣١١هـ) في كتابه معاني القرآن وإعرابه

الباحث
أ.م.د. ضحى محمد صالح
كلية التربية للبنات / الجامعة العراقية

Qur'anic Exegesis Rules According
to Abū Isḥāq al - Zajjāj
(d. 311 AH) in His Book Ma'ānī al - Qur'ān wa I'rābuhu

Assistant Professor
Dr. Duha Muḥammad Ṣāliḥ
College of Education for Women / Al - Iraqi University

ملخص البحث

يتناول البحث الأسس المنهجية والضوابط الأصولية التي التزمها أبو إسحاق الزّجّاج (ت. ٣١١هـ) في كتابه معاني القرآ ن وإعرابه، والتي انبنت على فهم السلف في تعاملهم مع القرآن الكريم، ويُعدّ هذا الموضوع من الموضوعات المهمّة في الدراسات التفسيرية، نظرًا لكون الزّجّاج من علماء اللغة الذين أسهموا في تأسيس منهج لغوي عقلاني في التعامل مع النص القرآني.

الكلمات المفتاحية: قواعد التفسير، قراءة، رواية، السياق.

Research Abstract:

This research examines the methodological foundations and fundamental principles adhered to by Abū Isḥāq al - Zajjāj (d. 311 AH) in his book Ma'ānī al - Qur'ān wa I'rābuhu (Meanings of the Qur'an and Its Grammatical Analysis), which were built upon the understanding of the early Muslim generations (Salaf) in their engagement with the Holy Qur'an. This topic holds significant importance in Qur'anic exegetical studies, given that al - Zajjāj is among the linguists who contributed to establishing a rational linguistic methodology for approaching the Qur'anic text.

Keywords: Exegesis rules, Recitation, Narration, Context

مقدمة البحث

الحمد لله الذي أنزل الكتاب هدى للناس، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

يعدّ علم التفسير من أجلّ العلوم الشرعية، إذ به تُفهم معاني القرآن الكريم وتُستنبط أحكامه وهداياته، وقد تنوعت مناهج المفسرين عبر العصور، فمنهم من غلب عليه الجانب اللغوي، ومنهم من اعتمد الجانب الفقهي، أو العقدي، أو البياني. ويُعدّ أبو إسحاق الزّجّاج من أبرز أعلام التفسير ومعاني القرآن في القرن الثالث الهجري، إذ تميز منهجه بمزج عميق بين علوم اللغة والنحو والتفسير .

وقد كان لي باع في دراسة كتابه (معاني القرآن وإعرابه) في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، وكان من جملة ما وقفت عليه في دراستي الكتاب، تعرضه لقواعد تفسيرية تأصيلية، التزمها في كتابه كلّه، بل ودافع عنها وردّ أقوال من تساهل بها، فما كان مني إلا جمعها وأبرازها وصوغها بأسلوبه - رحمه الله - وهي قواعد كلية اندرجت تحتها ضوابط، كانت ميزانه في احتكامه للمعنى الذي وافق فيه أئمة السلف من قبله وأولهم شيوخه وشدّد على مخالفهم.

مشكلة البحث :

قلة الدراسات المتخصصة التي تناولت منهج الزّجّاج التقعيدي في التفسير، وأخصّ منها قواعده التفسيرية التي تعدّ من الموضوعات الحديثة والتي عادة ما تستخرج من كتب التفسير المعروفة لا كتب اللغة، وبما أنّ كتاب «معاني القرآن وإعرابه» قد عرف اعتناء صاحبه باللغة والإعراب؛ الأمر الذي دعاني إلى ضرورة الوقوف على تلكم القواعد التي شكلت لنا شخصية اللغوي المفسّر، و كان لها الأثر في رسم منهجه في التعامل مع النص القرآني.

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على الأسس والضوابط التي شكلت معالم هذا المنهج، هذا إذا علمنا أن الزّجّاج كان سلفيا، مرجعيته الكتاب والسنة ولغة العرب .

هدف البحث :

يهدف هذا البحث إلى :

• التعرف على أهم القواعد التفسيرية التي اعتمدها الزجاج في تفسيره .

• بيان المنهج الأصولي في التفسير لدى علماء اللغة في القرن الثالث الهجري .
• الكشف عن مدى تأثر الزّجّاج بالمدارس النحوية والكلامية في توجيه معاني الآيات .
• المساهمة في سدّ الفجوة البحثية في هذا الجانب من تراث الزّجّاج اللغوي - رحمه الله - .

هيكلية البحث :

ينقسم البحث إلى مقدمة، ومبحث تمهيدي، وثلاثة مباحث، وخاتمة :

• التمهيد : وهو على قسمين:
• الأول: التعريف بالزّجّاج، سيرته العلمية، ومنهجه في كتابة معاني القرآن وإعرابه .
• الثاني: تعريفات تمهيدية للبحث، القواعد لغة واصطلاحا وعند الزّجّاج
• المبحث الأول :قواعد الزّجّاج النقلية، ويتضمن مطلبين:

الاول: الرواية وأصنافها عند الزّجّاج، الثاني: ترجيحه الروايات

• المبحث الثاني: الإعتداد بالسّنة والإجماع في تفسير القرآن وهو على مطلبين:
• الاول: مفهوم السّنّة عند الزّجّاج الثاني: الإجماع عند الزّجّاج
• المبحث الثالث: قواعد الزجاج العقلية وهو على أربعة مطالب: الأول: تفسير القرآن بالقرآن، والثاني: مراعاة السياق ودلالته في بيان المعنى التفسيري، والثالث: الحذف في العربية، والرابع: تفسير القرآن باللغة
• الخاتمة :أهم نتائج البحث والتوصيات .

المبحث التمهيدي

أولا: التعريف بالزَّجَّاج وبكتابه معاني القرآن وإعرابه.

١) الزّجّاج سيرته ومكانته ووفاته

هو إبراهيم بن السَّري بن سهل الزَّجَّاج[١] كنيته أبو إسحاق، وهي شائعة في اسم إبراهيم[٢]. أمّا

(١) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، أ: ٢٧٢؛ الأنباري، أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، (المتوفى: ٥٧٧هـ)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ط٣، مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م : ١٦٧

(٢) ينظر: كنى المسمين بابراهيم في تاريخ بغداد ٦/ ٤٠٥ - ٤١٦

(الزَّجَّاج) فلقبه [١]. ولد في بغداد سنة ٢٤١هـ[٢]، و نشأ وترعرع فيها والدليل ما وصلنا من أخبار عنه في شبابه وكهولته، كاشتغاله بالزَّجَّاجة، وتلمذته، وأستاذيته، ومناظراته وتأديبه أولاد الخلفاء والوزراء ووفاته، فهو بغدادي النَّسب والمنشأ. [٣]

شيوخه

تأثر الزَّجَّاج تأثرا كبيرا بشيوخه الذين كانوا سببا في صفاء عقيدته، وسلامتها من الأهواء الناجمة عن الصراع العنيف بين المذاهب المختلفة في عصره. وعليه تكون معرفة شيوخه أمرا له أهميته في تعرّف مذهبه النحوي والفقهي والكلامي. [٤]

ويمكن تقسيم شيوخه على قسمين:

القسم الاول: الشيوخ الذين أخذ عنهم علوم العربية وأذكر منهم

١ - ثعلب (٢٠٠هـ - ٢٩١هـ):

أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني[٥] وهو شيخه الأول، وزعيم النحو الكوفي، في بغداد قبل المبرد. [٦]

٢ - المبِرّد (ت: ٢٨٥هـ)

هو أبو العباس، محمد بن يزيد بن عبد الاكبر[٧] شيخ نحو البصريين في عصره.

(١) ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن على الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت ١٤١٤ هـ، مادة –زجج -، وينظر: التكريتي، محمد صالح، الزَّجَّاج، حياته وآثاره ومذهبه في النحو، رسالة ماجستير (مخطوطة) جامعة بغداد ١٣٨٦هـ/١٩٦٧: ١١ - ١٣.

(٢) ينظر: الزركلي، خير الدين خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: ١٥، ٢٠٠٢ م: ٣٣/١ ولن اعتمد ذلك التاريخ سنة ولادة للرجل، وقد حققها د. محمد صالح التكريتي رحمه الله، وكانت سنة ٢٣١هـ، معتمدا على أدلة عديدة، ينظر: الزجاج، حياته وآثاره: ١٥.

(٣) المصدر السابق: ٥٤ - ٥٨

(٤) ينظر: الزجاج، حياته واثاره: ١٥

(٥) ينظر: الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الأندلسي الإشبيلي (المتوفى: ٣٧٩هـ)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف(دت): ١١١؛ تاريخ بغداد ٢٠٥/٥. نزهة الالباء: ١٥٨؛ القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٠م: ١٣٩/١ .

(٦) ينظر: أنباه الرواة ١٤٢/١؛ الزجاج، حياته واثاره: ٢٠.

(٧) تاريخ بغداد ٣٨٠/٣؛ نزهة الالباء ١٤٨؛ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر(المتوفى: ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مصر ١٩٤٨م: ٤٤١/٣

القسم الثاني: الشيوخ الذين أخذ عنهم العلوم الاخرى ويأتي هذا القسم بعد الأول، وهو مهم جدا كما يقرره الدكتور محمد صالح التكريتي(رحمه الله)[1]، لكونه غير مذكور في كتب التراجم والطبقات التي تحدثت عن الزَّجَّاج، وكان لهما الاثر الواضح في منهجه الأثري المتعلق بالرواية. من أبرزهما شيخان جاء على ذكرهما في تفسيره هما:

١ - إسماعيل بن اسحاق القاضي (ت: ٢٨٢هـ)

وهو إسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل بن حماد، أبو اسحاق الأزدي، البصري، الفقيه المالكي، القاضي ببغداد. [٢] شيخه في المذهب

٢ - عبد الله بن أحمد بن حنبل (ت: ٢٩٠هـ)

هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبد الرحمن، البغدادي، علم من أعلام الحديث. [٣] روى عن إسماعيل بن اسحاق القاضي[٤] الذي تقدم ذكره وغيره، ويعدّ شيخه في الرواية والنقل.

مكانته العلمية:

بلغ الزَّجَّاج منزلة عالية في العلم، فقد جد واجتهد في طلبه منذ نعومة أظفاره. ولم يقعده الفقر عن بلوغ مرامه، حتى صار إماما في النحو واللغة، وآلت إليه رئاسة النحو في بغداد بعد وفاة شيخه المبرّد سنة ٢٨٥هـ.

يقول عنه الأزهري في مقدمة تهذيبه، بعد تقسيمه الأئمة المتقنين، وعلماء اللغة المأمونين على طبقات: (ويتلو هذه الطبقة - يعني طبقة المبرّد وثعلب - طبقة أخرى، أدركناهم في عصرنا، منهم أبو إسحاق إبراهيم بن السَّري الزَّجَّاج النحوي، صاحب كتاب المعاني في القران. حضرته ببغداد بعد فراغه من إملاء الكتاب، وألفيت عنده جماعة يسمعونه منه. وكان متقدما في صناعته،

(١) أستاذ اللغة العربية والنحو في قسم اللغة العربية والدراسات العليا في كلية التربية الاولى ابن رشد - جامعة بغداد (١٩٣٨ - ٢٠٠٤م)

(٢) معاني القران وإعرابه ٦/٢

(٣) العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تهذيب التهذيب، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند. (دت).

(٤) تاريخ بغداد ٦/ ٢٨٤قال الزَّجَّاج بعد أن تكلّم على الإعراب والمعنى والروايات الواردة في قصة حرق إبراهيم: (وجميع ما ذكرناه في هذه القصة مما رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه، وكذلك أكثر ما رويت في هذا الكتاب من التفسير فهو من كتاب التفسير عن أحمد بن حنبل) معاني القران وإعرابه ٣/ ١٦٦

بارعا، صدوقا، حافظا لمذاهب البصريين في النحو ومقاييسه)[١].

عقيدته:

من الممكن أن نُجمل عقيدة الزَّجَّاج في النّقاط الآتية:

أولاً: تصريحه في غيرما موضع من كتابه « معاني القرآن وإعرابه « عن عقيدته السُّنيّة، التي تمثّلت بالتزامه منهج أهل السُّنة والجماعة في تفسيره للآيات القرآنية، ولا سيّما الكلامية منها؛ حتى أنّه جعل الإيمان إتّباع الكتاب والسُّنة وما عليه سلف الأمة.

قال في موضع: (وهذا مذهب أهل السُّنة والعلم والحديث)[٢] وأفصح عن منهجه في الإتباع بقوله أنّ: (الأولى أن يُتبع ما جاء بالأسانيد الصِّحاح، فإن جاء في الخبر من حيث ينقل أهل الثقة، فينبغي أن يُقبل ذلك)[٣].

ثانياً: تصديه للدفاع عن كلام الله تعالى؛ وذلك بردّه على الطوائف الضالة، وتفنيد حججهم الواهنة. كما خالف المعتزلة، وردّ معتقدهم في غير موضع من كتابه[٤].

مذهبه الفقهي:

الزَّجَّاج مالكي المذهب، وهذا يتبين حينما نقرأ في المعاني المسائل الفقهية المختلف فيها بين الفقهاء، كمسائل النكاح والطلاق[٥] والغنائم[٦] وانتصاره لمذهب مالك - رحمه الله - وغيرها من المواضع التي تثبت مالكيته وتنفي حنبليته في المذهب الفقهي.

وفاته وآثاره:

توفي الزَّجَّاج في بغداد سنة ٣١١هـ، وقد أناف على الثمانين.

وخلّف بعده مصنفات كثيرة منها ما هو مفقود ومنها ما وصل إلينا، ومن تصانيفه المفقودة: الاشتقاق، والأمالي، وخلق الفرس، وخلق الإنسان، والردّ على ثعلب في الفصيح، ومعاني القران وإعرابه الذي هو أشهرها، وغيرها من التصانيف[٧].

---

(١) تهذيب اللغة ١/ ٢٧

(٢) (٣) المصدر السابق: ٢/٢٢٥ (سورة الأنعام: الآية: ١٠٣)، ٥/٦٥ (سورة القمر: الآية: ١)

(٣) (٤) معاني القرآن وإعرابه: ٢/٢٥٨ (سورة الأعراف: الآية: ٨)

(٤) (١) يُنظر: معاني القرآن وإعرابه: ٣/٢٧٣ - ٢٧٤، ٢/٣١، ٥/٢٣٢.

(٥) ينظر: معاني القران وإعرابه ٥/ ١٨٣.

(٦) ينظر المصدر السابق: ٢/ ٤١٥ - ٤١٦؛ ٢/ ٤٥٧ - ٤٦٠.

(٧) ينظر: الزّجّاج حياته وآثاره ٦٧ - ٨٦.

٢ - كتاب معاني القران وإعرابه

يعد هذا الكتاب من أغنى المصنفات في مادته العلمية، واستغرق تأليفه ستة عشر عاما، وقد ذاع صيته في الآفاق، حتى أنّ كتاب التراجم يضعونه على رأس القائمة من كتبه.

والكتاب في أجزاء، وهو إذ يفصح عن المنزلة العلمية التي وصل إليها الرجل في فهمه النص القرآني، وتوجيهه إياه على وفق أسس وضوابط نقلية وعقلية كما سيأتي.

مادة الكتاب:

الكتاب ذو قيمة علمية عالية، اعتمد فيه الزَّجَّاج على ملكته وتمكّنه في اللغة والنحو، فهو كتاب تفسير وتأويل وقراءات وإعراب وقواعد نحو ولغة وشواهد وأقوال علماء، كما أنّه يعرض مذهبه الخاص ومنهجه الذي كان متميزا عن غيره؛ معتمدا على تضلعه في النّحو واللغة. (١)

وكثيرا ما نراه يوازن بين الآراء، ويرجح بعضها، كما يزيد آراء جديدة لم يسبق إليها. ومن خلال المادة العلمية في الكتاب نلمس عالما مجتهدا، عميق الفكر، قوي الحجة والبرهان يعرض مادته بأسلوب سلس، ولفظ سهل، ومنطق عذب، مما يجعل قارئه لا يملّ قراءته أبدا(٢).

وتعد هذه المادة التي قدمها في كتابه مثالا للورع والتقوى والدفاع عن الإسلام والقرآن.

منهجه التفصيلي في كتابه معاني القرآن:

المنهج الذي اتبعه الزجاج في تفسير القرآن:

١. المنهج النحوي اللغوي: اتبع الزّجّاج في تفسير القرآن الكريم منهجًا لغويًا محضًا، حيث أضاف إلى التفسير النظرة النحوية التي تبرز كيفية إعراب الآيات، وكيفية استنباط المعاني العميقة من خلال التراكيب اللغوية. إذ قام بتفسير الكلمات القرآنية بناءً على معناها اللغوي، مراعيا بذلك صحة النقل و ما أُجمع عليه النحويون وأهل الصناعة.

٢. إبراز القواعد النحوية في القرآن: حرص الزجاج في كتابه على شرح القواعد النحوية التي تفسير النصوص القرآنية التي تتكشف عن دلالاتها، مثل قواعد التقديم والتأخير، التوكيد، التثنية والجمع، وغيرها من القواعد النحوية الأساسية التي تفيد في فهم المعاني الصحيحة للآيات.

(١) ينظر: التكريتي، ضحى محمد صالح، التفسير والتأويل في معاني القرآن وإعرابه لأبي اسحاق الزّجّاج (ت٣١١هـ)، بحث ماجستير (مخطوط)، كلية العلوم الإسلامية/جامعة بغداد ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م: ٧٣ - ٧٧

(٢) الزجاج، حياته وآثاره: ٨٨

٣. الاهتمام بالسياق القرآني في بيان المعنى: بالإضافة إلى الاهتمام بالقواعد النحوية، كان للزجاج اهتمام واضح بالسياق البلاغي والتراكيب اللغوية التي تبرز معاني النصوص القرآنية. فقد أضاف تحليلات بلاغية توضح كيفية تأثير التراكيب النحوية في المعنى العام للآية.

٤. التفسير بالمعنى: كان الزجاج يميل إلى تفسير القرآن بالنظر إلى المعاني اللغوية للكلمات والآيات، مع التركيز على ما تقتضيه القواعد النحوية من فهم دقيق. لذا نجد أنه أحيانًا يفسر الكلمة القرآنية بناءً على معانيها المتعددة في اللغة العربية.

٥. اختياره للمراجع النحوية: اعتمد الزجاج في تفسيراته على مجموعة من المصادر النحوية القديمة والمعتمدة مثل كتب سيبويه، والفراء، وابن جني، وابن السكيت، وغيرهم. وكان هذا التراكم المعرفي هو أساس تفسير(١).

ثانيا: مفهوم القاعدة عند علماء اللغة والأصول:

القواعد في اللغة جمع قاعدة ونعني بها الأصل والأساس الذي يبنى عليه غيره ويعتمد(٢)، سواء أكان حسيّا أم معنويا(٣)، يقال قواعد الدين وقواعد الاسلام، وقاعدة البيت أساسه، ومنه قوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ} [البقرة: ١٢٧] ومثله قوله تعالى: {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ} [النحل: ٢٦].

قال صاحب الدرّ المصون: و«مِنْ» لابتداءِ الغاية، أي: من ناحيةِ القواعدِ، أي: أتى أمرُ الله وعذابُه (٤). وكل قاعدة هي أصل للتي فوقها(٥).

(١) ينظر: التفسير والتأويل في معاني القرآن وإعرابه لأبي اسحاق الزّجّاج للباحثة.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس؛أبو الحسين أحمد بن زكرياء القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ١٠٩/٥؛ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي؛ أبو العباس أحمد بن محمد بن علي (ت: نحو ٧٧٠هـ)، المكتبة العلمية – بيروت، ٥١٠/٢.

(٣) شرح القواعد السعدية، الزامل، عبد المحسن بن عبد الله بن عبد الكريم، خرج أحاديثها: عبد الرحمن بن سليمان العبيد، أيمن بن سعود العنقري دار أطلس الخضراء للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، ص: ٨

(٤) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق (٧/ ٢٠٩)

(٥) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الحنفي، (ت: ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، ص: ٧٠٢

أما عند الأصوليين: فهي حكم كلّي يتعرف به على أحكام جزئياته أو هو حكم أغلبي ينطبق على معظم جزئياته، وإنما قيل على معظم جزئياته؛ لأنّ كثيرا من القواعد لها استثناءات وأحكام تندّ عنها، لأنّ العبرة بالأغلب، والشاذ والنادر لايخرم القاعدة(١).

قواعد التفسير: هي الأحكام الكلّية التي يتوصل بها إلى استنباط معاني القرآن العظيم، ومعرفة كيفية الإستفادة منها(٢).

قواعد التفسير عند الزّجّاج: هي الأحكام والضوابط التي التزمها الزّجّاج للإحتكام إلى المعنى تفسيرا وبيانا أو ترجيحا.

المبحث الأول: القواعد النقلية عند الزّجّاج

ويقصد منها جملة الضوابط التي احتكم إليها الزّجّاج في صون النص القرآني بطريق الرواية والسماع

المطلب الاول: الرواية وأصنافهاعند الزّجّاج

قاعدة: إن القراءَة سنّة لا تتجاوز، ولا يَجُوز أنْ يقْرأ قارئٌ بِمَا لم يقرأ به الصحابة والتابعون أو من كانَ من قُرَّاءِ الأمصار المشهورين في القراءَة إلَّا أن تثبت رواية صحيحة(٣).

وهذه القاعدة جامعة لثلاثة ضوابط:

الضابط الأول: إن القراءة سنّة، فإذا جاءت متواترة نقلا عن الصحابة والتابعين، ومن أخذ عنهم من القُرَّاء المجمَع عَلَيْهِمْ في الأخذ عنهم؛ فهي القراءة التي لايقرأن القرآن بخلافها(٤)،

(١) الكليات ص: ٧٢٨، كشاف اصطلاحات الفنون: ١٢٩٢/١، التعريفات، الجرجاني؛ علي بن محمد بن علي الزين الشريف (ت: ٨١٦هـ)
تحقيق و ضبط وتصحيح جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص: ١٧١، التعريفات الفقهية، البركتي ؛محمد عميم الإحسان المجددي، دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص: ١٦٩،

(٢) قواعد التفسير، السبت ؛خالد بن عثمان، دارابن القيم، المملكة العربية السعودية - الرياض، الطبعة: الأولى١٤٣٩هـ/٢٠٠١م، ٤٠/١.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٩١/٥)

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (١٥١/١)؛ (٢٦٨/١)؛(٣٨٥/١)؛(٤٢٠/١)؛ (٩٣/٢)؛ (٤١١/٢)؛ (٦/٣)؛ (١٠٨/٣)؛ ١٢/٤)؛ (٩٧/٥)

قال الزجاج «فأمَّا القرآن فخطأ فيه أن نقْرأ بما لم يَقْرأ به مَنْ هو قُدْوةٌ في القِراءَةِ، لأنّ القراءَة سنة لا تتَجاوَز»(١).

فالرواية عند الزجاج على أربعة أصناف:

أولا: رواية صحيحة من حيث الثبوت لاتخالف، وهي الأصل وعليها القراءة، وإليها يحتكم في اللغة والمعنى، قال الزجاج: «فلا تقرأن إلا أن تثبت رواية صحيحة «(٢) ونقل عن مشايخه من أهل العلم بأنهم لايرون أن يقرأ أحد بما جاز في العربية؛ إذا لم تثبت في ذلك رواية صحيحة(٣).

لذا أنكر على من ردّ قراءة متواترة وغلّط من فعل ذلك، فقال في تفسير قوله تعالى: (قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ. . الآية)البقرة/١٣٩ في قراءة من حذف إحدي النونين لإجتماعهما، فصارت (أتحاجُّونا) قال أبو اسحاق: «والإقدام على ردّ هذه القراءة غلط؛ لأنّ نافعا رحمه الله قرأ بها، وأخبرني إسماعيل بن اسحاق(٤) أنّ نافعا رحمه الله لم يقرأ بحرف إلا وأقل ماقرأ به اثنان من قراء المدينة، وله وجه في العربية، فلا ينبغي أن يردّ»(٥)

الثاني: رواية لم تثبت عنده من حيث الصحة، وهذه يتوقف عندها فلا يردّها ولا يقبلها، وإنما يكل التثبت إلى من يجيء بعده، ومن أسند إليك فقد أحالك.

الثالث: رواية شاذة خالفت شرط التواتر ورسم المصحف، وقلّت الرواية بها فلا يجيز القراءة بها ويذكرها لبيان المعنى على وجه التفسير عن الصحابي الذي رواها، إذ أن كتابه قائم على بيان المعاني القرآنية عنوانا ومضمونا، مثاله بيانه لقوله تعالى: (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) الكهف/٣٨، فذكر القراءات القرآنية الواردة في إثبات الألف من (لكنّا) وادغام النون وفكّها عند القراء بالروايات الجيّدة والضعيفة، مع تعليل كلّ منها من حيث جوازها في العربية، ثم عرّج على إثبات ماوافق المصحف وصحّ عنده برواية إبي بن كعب - رضي الله عنه - الشاذة، تعضيدا، فيقول: «والجَيِّد البالغ ما في مصحف أُبَي بنِ كَعْبٍ ولم نذكره في هذه القراءات، لمخالفته المصحف وهو «لكن أنا هو الله ربي»(٦). . ثم يتابع حديثه قائلا «والأجود اتباع القرّاء

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (١٤٧/٢)
(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٩١/٥)
(٣) المصدرالسابق
(٤) ويعني شيخه
(٥) معاني القرآن وإعرابه: (٢١٦/١ - ٢١٧)
(٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢٨٧/٣

ولزوم الرواية، فإنّ القراءة سنّة، وكلّما كثرت الرواية في الحرف وكثرت به القراءة فهو المتبع، وما جاز في العربية ولم يقرأ به قارئ؛ فلا تَقْرأنَّ به فإنّ القراءة به بدعة، وكل ما قَلَّتْ فيه الرواية وضعُفَ عند أهل العربية فهو داخل في الشذوذ، ولا ينبغي القراءة به(١).

فالشذوذ عنده ما كثرت به الرواية عن القرآء المشهورين وخالف المصحف وإن كان له وجه في العربية(٢).

فيفاد من الرواية بيان المعاني زيادة على تعضيد الرواية الصحيحة، فهي - أي الشاذة - من الوجوه الصحيحة في تفسير القرآن ؛كونها جاءت نقلا عن الصحابة رضي الله عنهم.

الرابع: رواية لايؤخذ بها ولا يُقرأ. وهي على قسمين:

أ - رواية لم يُقرأ بها، ومنها قوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ)الزلزلة/٦،

قال: »القراءة (لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) ويُروى: لِيَرَوا أَعْمَالَهُمْ، - قال - ولاأعلم أحدًا قرأ بها، ولا يجوز أن يقرأ بما يجوز في العربية إذا لم يقرأ به من أُخِذَت عَنْهُ القراءة»(٣).

وقد ثبت عنده زيادة على ماذكر، ردّه لروايات لم يسمعها مع مخالفتها للعربية، مثالها إنكاره لرواية (قليلٌ) بالرفع من قوله: (تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ) معلّلا ذلك بقوله: «فلا أعرف هذه القراءة، ولا لها عندي وجه، لانّ المصحف على النصب والنحو يوجبها. . »

ب - رواية عن متقدّم لم يؤخذ عنه حرف في القراءة، مثالها ماجاء في قوله تعالى: (وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) الرحمن/١٢ قُرأت «تَخْسِروا»، قال الزجاج: »ولا تَخْسِروا ولا تقرأنَّ بها إلا أن تثبت رواية صَحيحةٌ عن إمام في القراءة. وقد رُوِي أن إنساناً قرأ بها من المتقدمين؛ ولكنه ليس مِمن أخذت عنه القراءة ولا له حرف يقرأ بِه»(٤).

المطلب الثاني: ترجيحه الروايات

قاعدة: إذا وردت قراءتان أحدهما تحققت فيها شروط القراءة الصحيحة والثانية لم تتحقق، فيؤخذ بالأولى لموافاتها ما شُرِط، وعليها المعنى.

(١) ينظر: المصدر السابق: (٢٨٨/٣)
(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: (٤١٨/٢)
(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٣٥٢/٥)
(٤) معاني القرأن وإعرابه للزجاج: (٩٧/٥)

فترجيحه المعنى تبعا للقراءة الصحيحة بصحّة السند، ويعبّر عنها الزّجّاج في كتابه ب(القراءة)

ومن جملة ترجيحات الزجاج ماكان يذهب اليه في بيان المعاني تبعا للقراءة، ففي قوله تعالى (وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)الكهف/٥١ قال الزجاج: » ويقرأ (وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ) - بفتح التاء - المعنى في فتحها: ما كنتَ يا محمدُ لتتخذ الْمُضِلِّينَ أنصاراً، وضمّ التاء هي القراءة، وعليها المعنى .

يخبر اللَّه عزَّ وجلَّ بقدرته، وأنه لا يعتضِدُ فيها ولا في نُصْرتِه بالْمُضِلِّينَ والاعتضادُ التقوى. وطلب المعونة، يقال: اعتضدت بفلانٍ، معناه استعنتُ به»[١]. فنجده قد رجّح المعنى على الوجه الأكثر في القراءة. و يصرّح بهذا الترجيح، فيقول: «والوجه الأول أجودُ في المعنى وعليه القراءة «[٢].

وشروط القراءة أن تجتمع فيها ثلاث:

أ) صحة النقل أو السّند: وقد عبّر عنه الزّجّاج ب: الرواية الصحيحة»، ففي قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين) الفاتحة/٢، قال: »معنى الْحمْد الشُّكْرُ والثناءُ على الله تعالى. الحمدُ رفع بالابتداءِ، وقوله: (لِلَّهِ) إخبار عَنِ الْحمْدِ والاختيارُ في الكلَامِ الرفْعُ، فَأَمَّا القُرآنُ فلا يُقْرأ فِيه (الحمدُ) إلا بالرفع؛ لأن السُّنة تتبع فِي القرآن، ولَا يُلْتَفَتُ فِيه إِلى غَير الرِّوايةِ الصحِيحَةِ التي قد قرأ بها القُرّاءالمشْهُورُونَ بالضَبطِ والثِّقة، والرفعُ القَرَاءَةُ»[٣]

ب) موافقة المصحف:

قاعدة: إذا كان في المصحف كلّه الحرف على صورة، لم تجز القراءة بغيره، لأنه مجمع عليه، أما المصحف وموافقة رسمه فقد كان يردّ رحمه الله على كل ماجاز في العربية - وإن كان الوجه مقبولا - إذا خالف المصحف، فشدّد على ضرورة التزام القراءة التي توافق المصحف الإمام، مقتفيا أثر السلف الذين كانوا يكرهون أن يُقرأ بما خالف الإمام [٤] قال الزجاج: »والقراءة سنة لاتُخالف، إذا كان في كل المصحف الحرف على صورة، لم تجز القراءة بغيره»[٥]والمقصود

(١) معاني القرآن وإعرابه: (٢٩٤/٣).

(٢) ينظر المصدر السابق(٥٣/٣)، تفسير قوله تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ . . الآية) الذاريات: ١٤ - ١٥

(٣) معاني القرآن وإعرابه: (٤٥/١)، (٣٣٦/١)

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: (٤٦٧/٢)؛(١٠٨/٣)؛(١٥١/٣)؛(٣٢٠/٣)؛(١٠٣/٤)؛(١١١/٥)

(٥) معاني القرآن وإعرابه: (٢٩٠/١)

بالحرف هو ما وافق الرسم، وسبب ذلك كما بيّن؛ «أن المصحف مجمع عليه، ولا يعارض الإجماع برواية لايُعلم كيف صحتها»[١] وذلك فيما روي عن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما أنهما قرءا (القيّام) في (الحي القيّوم).

فنلحظ أنه شكك في الرواية؛ لأنّها لم تثبت عنده، فالأصل أن يقدم الثابت على ما لم يثبت، والمصحف برسمه قد أُجمع عليه كما هو معلوم، لذا لايخالف للإجماع، كما سيأتي.

ج) موافقة العربية: فكان يختار من بين الوجوه أبلغها وأقواها؛ لأنها تتناسب والتنزيل العزيز الذي يحمل على أجود الوجوه، فكان يقول:

قاعدة: »ليس ينبغي أن يُحْمل كتاب الله على « أنشدني بعضُهُمْ « ولا على بيْت شَاذ «[٢]

ومن الأمثلة على ذلك تفسيره لقوله تعالى: (وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)ال عمران/١٩، قال: » والجزم هو الوجه في (ومن يكفرْ) وهي القراءَةُ، ولو قرئت بالرفع؛ لكان له وجه من القياس، ولكن الجزم أجود وأفصح في المعنى»[٣]. وفي موضع آخر يقول: »القراءة بالتشديد في (أَمَانِيُّهُمْ) للإجماع عليه، ولأنه أجود في العربية»[٤].

المبحث الثاني: الإعتداد بالسّنة والإجماع في تفسير القرآن

قاعدة: كل تفسير مخالف للسّنّة والإجماع مردود

وهذا الضابط على قسمين:

الأول: كلّ ما خالف السّنة مردود

ويعني بالسنّة قول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فهو المبيّن لكتاب الله تعالى بنص الكتاب العزيز(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)النحل/ ٤٤، ففي حال صحّت الرواية عنه صلى الله عليه وسلم، وجب الأخذ بها في التفسير والبيان، ولنا بهذا الأخذ أمران: صحة البيان، وحسن الأتباع للنبي العدنان.

(١) معاني القرآن وإعرابه: (٣٧٤/١)
(٢) معاني القرآن وإعرابه: (٤١٨/٢)
(٣) معاني القرآن وإعرابه: (٣٨٧/١)؛وينظر: (١٢/٢) تفسير (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة. . الآية)النساء: ٤
(٤) معاني القرآن وإعرابه: (١٩٤/١) تفسير (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ)البقرة: ١١١؛وينظر: (١٥٤/١)

وقد أكّد الزّجّاج على هذه القاعدة في تفسيره كثيرا، فقال:

قاعدة: » كل من خالف السُّنَّةَ والإجماعَ مبتدع؛ لأنّه يأتي في دين الإسلام بما لم يسبقه إليه الصحابة والتابعون»[١].

ويمكن تقسيم هذا المبحث على مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم السّنّة عند الزّجّاج

السنّة عند الزّجّاج ماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أو المرفوع أو ماله حكم الرفع.

والذي يقرأ في معاني الزجاج يلمح استعماله كثيرا للفظ «التفسير» عن الأثر[٢]، أو ما اصطلح عليه في أصول التفسير «بالتفسير النقلي «، وقد يكون التفسير صحيحا أو يكون ضعيفا، فالذي صحّ عنده يقدم على غيره، لأنّه الأصل في البيان، وأعلى البيان ماصحّ عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده الذين حضروا وشهدوا القرائن والأحوال ورافقوا النبي في الحلّ والترحال، ثم التابعين بإحسان، فمن خالفهم فقد ابتدع في الدين ماليس فيه.

لهذا قال في ردّ الأمرعند التنازع، الى الله ورسوله، وذلك عند تفسيره قوله تعالى: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) النساء/٥٩.

«معنى تنازعتم اختلفتم وتجادلتم وقال كل فريق: القولُ قولي، وفي هذه الآية أَمْر مَؤكد يدل على أَن القصد للاختلاف كفْر، وأنَّ الإِيمان اتباعُ الإِجماع والسُّنة، ولا يخلو قوله عزَّ وجلَّ: (فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) من أحد أمرين: إِمَّا أنْ تَرُدّوا ما اخْتَلَفْتُم فيه إِلى كتاب الله وسنة رسوله، أَو تقولوا إِن لم تعلموه: اللَّه ورسوله أَعلم»[٣].

أما الضعيف من النقل فقد يورده في كتابه دون ردّ وتضعيف لمكانة من نقل عنه[٤]، ولمّا يتبين له صحته، وأحيانا يردّ الرواية إن خالفت التفسير الذي أجمع عليه أهل التفسير واللغة[٥].

(١) معاني القرآن وإعرابه: (١/ ١٩٩)

(٢) ينظر: ما أوردته الباحثة في التفسير والتاويل في معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ضحى محمد صالح (رسالة ماجستير غير مطبوعة) كلية العلوم الاسلامية –جامعة بغداد ٢٠٠١، ص:

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٦٨)

(٤) كأن يكون المنقول عنه صحابي جليل كابن عباس رضي الله عنهما كما سيأتي.

(٥) ينظر: ص من هذا البحث

ورب سائل يسأل: هل كان رجوعه الى صحيح النقل في كل الأحوال أم أنّه يعود إليه في مواضع الاختلاف؟ والجواب عن هذا التساؤل بالقول في احتكامه الى صحيح السّنّة فيما لامجال للاجتهاد فيه[1]، وقد بدا ذلك واضحا في بعض مسائل الإعتقاد ومادار حولها من خلاف، حيث انتصر لمذهب أهل السنة من خلال احتكامه الى الثابت من صحيح النقل.

منه ما أورده في قوله عزَّوجلَّ: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) الأنعام/١٠٣.

إذ قال بلزوم الأخذ بالسنّة –خاصة - فيما لامجال للإجتهاد فيه: »فأما ما جاءَ من الأخبار في الرؤية وصحّ عن رسول اللّه فغير مدفوع، وليس في هذه الاية دليل على دفعه؛ لأنّ معنى هذه الآية إدراك الشيء والإحاطة بحقيقته، وهذا مذهب أهل السنة والعِلْمِ والحديث»[2].

فاحتكم –رحمه الله - الى قول أهل السّنة في تقديمهم حديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الصحيح، الوارد في إثبات رؤية المؤمنين لله تعالى يوم القيامة، مخالفين بذلك قول المعتزلة كما هو مبسوط في كتب أصول الإعتقاد.

وقد كان هذا الامر مثار اهتمامه - رحمه الله - الذي عرف بعنايته اللغوية وصنعته النحوية. والافت للنظر أنه أورد حديث الرؤيا هذا بسرد رواته ورواياتهم عند تفسير قوله تعالى: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) القمر/١

قال الزّجّاج: «أجمع المفسرون، - وروينا عن أهل العلم الموثوق بهم - أنّ القمر انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم» ثمّ يروي الحديث تلو الحديث باسناده عن اسماعيل ابن اسحاق قال: «وجميع ما أملي عليكم في هذا ما حَدثني به إسماعيل ابن إسحاق» ثم يروي الأسانيد التي أخذها عن شيخه هذا وهي تسعة عشر حديثا[3]مع الأحاديث المروية.

(١) ونعني به الأخبار والأحكام مما لاتؤخذ الا من جهة الشارع الحكيم لهذا قالوا في الصحابي الذي يروي حديثا موقوفا فيما لامجال للاجتهاد فيه بأن له حكم الرفع ينظر الشاطبي، الموافقات

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٢٧٩/٢)

(٣) ينظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٨١/٥ - ٨٥) بداية تفسير سورة القمر

والـذي يبدو لي أنّ مسالة الرؤيا هـذه قد أثيرت في زمانه من قبل المتكلمين، لـذا كان علماء السُّنة يحمّلون هذه الروايات لمن يأخذ عنهم العلم؛ ليدفعوا التأويل اللغوي المخالف لصحيح الأثر(١).

وقد حرص هذا الإمام الجليل على أداء هذا التحمّل، وأورده في كتابه الذي يعنى بالوجوه اللغوية والنحوية لألفاظ الكتاب العزيز، و فعله هذا حجّة على من يشتط بعيدا عن المنقول تفسيرا، متعللا بالوجه الإعرابي الذي يحتمله النص (٢).

فالسلامة في تطويع الوجه اللغوي ليوافق صحيح النقل؛ كما فعل الزّجّاج عند تأويله لنصوص التنزيل(٣)، ولا وجه لخلافه؛ فليس كل ما تحتمله اللغة يجوز في القرآن.

ومن الأمثلة على المرفوع ماروى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه - يرفعُهُ(٤): «سابقنا سابق. وَمُقْتَصِدُنَا نَاجٍ، وظالمنا مَغْفُورٌ لَهُ».(٥)

والآية تدل على أنّ المؤمنين مغفور لهم، لمُقتصدهم الظالِم لِنَفْسِهِ منهم بعد صحة العقد في تفسير قوله تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) فاطر: ٣٢.

قاعدة: قول ابن عباس إذا صحّ عنه، فهو من أوثَق التفسير،

فإذا ثبتت الرواية التفسيرية عن الصحابة - رضوان الله عليهم - فهي من أوثق التفسير

وقد روى الزّجّاج كثيرا عن الصحابي الجليل ابن عباس - رضي الله عنهما -، وكان يحتكم الى قوله وفيه يقول: «وقول ابن عباس إذا صحّ عنه، فهو من أوثَق التفسير»(٦)كيف لا وهو ترجمان القرآن وقد حاز الفضل من ثلاث جهات: الصّحبة والقرابة ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم

(١) وقد كان تلميذا للامام عبداالله بن احمد بن حنبل وعنه أخذ السنة، ينظر: التفسير والتأويل في معاني القرآن وإعرابه للزجاج(شيوخه)، ص: ١٦ - ١٧

(٢) ينظر: الكشاف: (١٥٣/٢)

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه:

(٤) هذا الرفع ذكره الزجاج في كتابه بهذا اللفظ والحديث في سنن سعيد بن منصور: أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني (ت: ٢٢٧هـ)تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية – الهند الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م، باب ماجاء في فضل الجهاد في سبيل الله(١٥١/٢)

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ٢٦٨)

(٦) المصدر السابق: (٢٧٧/٣) تفسير قوله تعالى: (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ)الكهف /٢٢

بـ(الفقّه في الدين وتعلّم التأويل)[١]

وقد بلغ بأبي إسحاق في حال ورود قول بعيد في التأويل أو القياس عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يخطّئ النقل أو الناقل[٢] منزها الصحابي ومن تبعه من الزلل والخطأ.

المطلب الثاني: الإجماع عند الزّجّاج

قاعدة: الإجماع حُجّة، فكل ماخالف الإجماع مردود

وهذا أصل اعتمد عليه وقال به في كتابه، رادّا على قول كلّ مخالف للاجماع، فالإجماع عنده ما اتفق عليه الصحابة والتابعون أولا ثم ما اتفق عليه أهل التفسير وأجمع عليه أهل اللغة من الذين يوثق فيهم ثانيا كما يقول: «وأخبرني من أثق به من رواة البصريين والكوفيين»[٣]، أو ممن يوثق بعلمهم « كالخليل وسيبويه

والأخفش وجميع من يوثق بعلمه»[٤].

والإجماع عند الزّجّاج على اثنتين: إجماع بالقراءة وإجماع بالتفسير

أولا: الإجماع بالقراءة

وقد شرط الزجاج الإجماع في القراءة ممن يؤخذ عنه وشُهِر، وذكر ذلك كثيرا في كتابه، فشدّد على شرطه هذا، ووجّه المعنى الذي يختاره تبعا للإجماع في القراءة في مواضع كثيرة، وقد أشار الى الرواية المتواترة بالإجماع، واتباع الأكثر من الرواة في مواطن لاحصر لها من كتابه، معلّلا ذلك بأنّ «القراءَة سنّة فالأوْلى فيها الإتباع، والأولى اتباع الأكثر، وهو كتاب الله عز وجل الذي ينبغي أن يقال فيه الى ماعليه الأكثر» [٥]، وحجته أيضا قاعدة: إنّ الإجماع في القراءة إنّما

(١) صحيح ابن حبان، أبو حاتم؛ محمد بن حبان بن أحمد بن مَعْبدَ، التميمي الدارمي، البُستي (ت: ٣٥٤هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣، باب ذكر وصف الفقه والحكمة اللذين دعا المصطفى صلى الله عليه وسلم لابن عباس بهما، (٥٣١/١٥)؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ)تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، (٢٥/٥).

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه : (٢٠/٢).

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٢٥٩/١) تفسير قوله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) البقرة: ١٨٩؛ وينظر المصدر نفسه: (٣٠٤/١)؛ (٢٢٧/٢)

(٤) معاني القرآن وإعرابه: (٧١/١)؛ (٢٠١/١)؛(١٩٩/٢)؛(٤٠٣/٤).

(٥) معاني القرآن وإعرابه: (٣٢١/٢)وينظر: المصدر نفسه(١٣٢/٢)

يقع على الشيء الجيّد البالغ. [١] ولا يقرأ حرف من كتاب الله مخالف فيه الإجماع[٢].

وهذا السبيل قد حدا بالزجاج أن يجعل الأجماع من معايير الترجيح عنده –كما سيأتي -، فما كان مجمعا عليه من قِبل القرّاء وعليه الأكثر؛ كان الأخذ به أولى، والعمل بمقتضاه أوجب. وقد كان يعبّر عن ترجيحه بذكر «أجمعت القراء»[٣]، أو ل «إطباق القراء عليه»[٤] وكان حديثه بأن» لايقرأ القرآن إلّا كما قرأت القرّاء المجمع عليهم في الأخذ منهم»[٥]وما لم يقرأ به الصحابة وأهل الامصار، وإن كان له وجه في العربية؛ لايلتفت إليه إلّا بثبوت رواية صحيحة عمّن تقدم [٦].

قاعدة: لايقرأ القرآن الا بقراءة الأئمة المجمع على إمامتهم، ولا يقرأ بما لم تقرأ به الأئمة وإن كان له وجه في العربية.

ففي قوله تعالى: (فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ) النساء: ١١.

رجّح قراءة النصب في (واحدةً) وإن قرأت بالضم؛ لأنّ عليه أكثر القراءة[٧].

ثانيا: الإجماع عند اللغويين والنحويين وأهل التفسير

أما الإجماع الثاني فهو إجماع أهل العربية سواء أكان الحديث عن درس أدائي صوتي كالادغام وفكّه، أو كان مسألة نحوية لغوية تفسيرية، فمن الأول ماجاء في تفسير قوله تعالى: (ويَغْفِر لَكمْ ذُنُوْبَكُمْ)ال عمران/٣١ فقد ساق قول بعض النحويين بادغام الراء في اللام، فقال «هذا خطأ فاحش، ولا أعلم أحدا قرأ به غير أبي عمرو بن العلاء، وأحسب الذين رووا عن أبي عمرو إدغام الراء في اللام غالطين، وهو خطأ في العربية، لأن اللام تدغم في الراء؛ لأن الراء حرف مكرر، فلو أدغمت في اللام ذهب التكرير، وهذا إجماع النحويين الموثوق بعلمهم»[٨]

(١) ينظر: المصدر السابق: (٢٣٦/١)
(٢) معاني القرآن وإعرابه(٤٦٥/١)
(٣) معاني القرآن وإعرابه: (٣٧٣/١)
(٤) معاني القرآن وإعرابه: (٢٩٠/١)
(٥) معاني القرآن وإعرابه: (١٥١/١)
(٦) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: (٩٢/٢)؛(١٣٤/٢)؛(١٤٧/٢)
(٧) معاني القرآن وإعرابه: ١٢/٢)، قرأ بالضم أبو جعفر والباقون بالنصب، ينظر: القراءات العشر المتواترة ص: ٧٧
(٨) معاني القرآن وإعرابه: (٣٩٨/١)، قرأ بهذه القراءة أبو عمرو البصري بخلف عن الدوري، ينظر القراءات العشر المتواترة ص: ٥٤ وهي قراءة متواترة لايجوز ردّها ولا اعتراضها بحجة أن العربية لا تجيزها، ونحسب أن الزّجّاج لم يصله تواتر هذه القراءة، لأنه سيخالف قاعدته التي أقرها في كتابه كله بعدم مخافة القراءة الثابتة وإن خالفت العربية

لكن هذا الشرط عنده ليس على إطلاقه، فإذا خالف الرواية وخط المصحف، لايعتدّ به، فلا يجوز عنده القراءة بالوجه النحوي، والمصحف على خلافه[١]

ومن الاجماع ماهو إجماع المفسرين على معنى، ففي تفسير قوله تعالى: (فَادْخُلِي فِي عِبَادِي* وَادْخُلِي جَنَّتِي)الفجر/٢٩ - ٣٠، قال: » فعلى هذه القراءة –والله أعلم - ادخلي الى صاحبك الذي خرجت منه فادخلي فيه، والأكثر في القراءة والتفسير[٢]: فادخلي في عبادي وادخلي جنتي[٣]» فهنا يرجّح الزّجّاج المعنى الذي عليه المنقول رواية موافقا بذلك ما عليه إجماع المفسرين في بيان الآية، وهي كما هو معلوم مما لا مجال للإجتهاد فيه.

ويلحق بهذا الإجماع ترجيحه سبب النزول المجمع عليها، ففي قوله عزَّ وجلَّ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)التوبة/٣٨، قال الزّجّاج: الإجماع في الروايات أنّ هذا كان في غزوة تبوك؛ وذلك أنّ الناس خرجوا فيه على ضَيقَة شديدة شاقة[٤].

وعليه نخلص بقاعدة: إذا أجمع المفسرون على معنى أو رواية فهو التفسير

المبحث الثالث: قواعد التفسير العقلية عند الزّجّاج

ونعني بها كلّ اجتهاد منضبط في تفسير النص القرآني بعيدا عن الرواية، ومن أبرز القواعد التي التزمها الزّجّاج وأعلاها تفسير القرآن بالقرآن

المطلب الأول: تفسير القرآن بالقرآن

القاعدة الأولى: يفسّر القرآن بمثله، سواء أكان لفظا أو معنى؛ لأنّه كالسّورة الواحدة

وهو الأصوب والأصحّ في بيان المعنى؛ لأنّ المتكلم هو الجليل نفسه، وكلامه جل وعز يشبه بعضه بعضا، ويفسّر بعضه بعضا، وإن تباعدت الايات نظما وتناءت مواضع الألفاظ،

لأنها الرواية الصحيحة.

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: (٢٠٢/١)؛(٣٠٦/٢)؛(١٠٨/٣)؛(١٠٣/٤)؛(٣٢١/٥).

(٢) ويعني أهل التفسير المعنيون بالتفسير المأثور.

(٣) لان هنالك قراءة أخرى (فادخلي في عبدي. .)

(٤) معاني القرآن وإعرابه: (٤٤٧/٢)

فبالإمكان الجمع والتأليف بين المعاني وهو مايطلق عليه بتفسير القرآن بالقرآن، وقد كان للزّجّاج هذا الرأي في كتابه إذ قال: » إن القرآن كلّه كالسورة الواحدة، ألا ترى أنّ جواب الشيء قد يقع وبينهما سُورٌ كما قال جلَّ وعزَّ جواباً لقوله: (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) الحجر/ ٦، فقال: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) القلم /١ - ٣، ومثله في القرآن كثير»[١].

وإذا أردنا القول بالتفسير الموضوعي الذي كان مدار إهتمام العلماء من حيث التصنيف منذ نصف قرن مضى والى يوم الناس هذا، لوجدنا أنّ الزجاج كان من أوائل من تعرض لهذا الموضوع وطبقه في الكشف والبيان عن معاني القرآن عن طريق جمع المتشابه من الآيات.

أما طريقته في بيان المعاني فكانت كالآتي:

أ - في حال اتفاق المعاني وتواشجها في بيان مراد الله، يذكر - رحمه الله - الايات دون زيادة؛ كونها مبيّنة عن نفسها، ومفصحة عن حقيقة المراد.

ب - في حال تباين المعاني وإشكالها، وإدخال الشُبه عليها من قبل ما يسميهم «الملحدين»، فإنه كان يبيّن، ويفسّر ويدرأ عن المعنى أي لبس يعتريه، مثاله ماجاء في أصل خلق أدم –عليه السلام - فقد تعددت الاقوال فيه تبعا لتعدد الالفاظ الواردة في الايات، فقال جل وعز: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ) الرحمن/١٤

وقال في موضع آخر: (إِنَا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ) الصافات/١١، وقال: (مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) الحجر: الايات ٢٦: ٢٨: ٣٣، وقال: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ)ال عمران/٥٩

قال الزجاج: «وهذه الألفاظ التي قال الله عزَّ وجلَّ إنه خلق الإنسان منها مختلفة اللفظ وهي في المعنى راجعة إلى أصل وَاحدٍ؛ فأصل الطين التراب، فأعلم اللَّه - عزَّ وجلَّ - أنه خلق آدم من تراب جُعِلَ طيناً ثم انتقل فصار كالحمَأ ثم انتقل فصار صَلْصَالًا كالفَخار، والصلصال اليابس، فهذا كلّه أصله التراب، وليس فيه شيء ينقض بعضه بعضاً، وإنّما شرحنا هذا[٢]؛ لأنّ قوماً من الملحدين يسألون عن مثل هذا ليُلْبِسُوا على الضعفة، فأعلم اللَّه - عزَّ وجلَّ - من أي شيء خلق

(١) معاني القرآن وإعرابه: (٤/ ١٨٩)
(٢) وهذا التعليل للزجاج

أبا الإنس جميعاً آدم عليه السلام»[١]

ج - بيان ما أحتيج الى بيانه، خصوصا عندما لم يسبق ببيان كما صرّح بذلك في تفسير قوله تعالى: (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)الانبياء/٩٥، قال: » وظاهر «حرام عليهم أنهم لا يرجعون»، يحتاج إلى أن يُبَيَّن، ولا أعلم أحداً من أهل اللغة، ولا من أهل التفسير بَيَّنه»[٢].

المطلب الثاني: مراعاة السياق ودلالته في بيان المعنى التفسيري

السياق: هو نظم الكلام واتساقه على نظام في المعنى[٣] وقد ذكر أهل الأصول في تعريفه بأنّه المرشد إلى تبيين المجملات، وترجيح المحتملات، وتقرير الواضحات. وكل ذلك بعرف الاستعمال[٤].

ودلالته تعني: تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتصل إلى غايتها في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال من بداية النّص الى منتهاه[٥].

وقد ذكر الزركشي (ت٧٩٤هـ) أنه «من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله؛ غلط في نظيره وغالط في مناظراته»[٦].

فالسياق قرينة قوية في التفسير، لكنّه ليس كافيًا، بل يُجمع مع اللّغة، وأسباب النزول، والمقاصد العامة، والقرائن الأخرى.

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٩٩)، وينظر المصدر نفسه: تفسير قوله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)هود: ١٠٥: (٧٨/٣) ؛ وينظر: (٢٢/٤)؛(١٦٢/٤)؛وينظرتفسيرقول الله تعالى (وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ)غافر: ٣٢: (٣٧٣/٤)؛وتفسير: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)القمر: ٤٥: (٩٢/٥).

(٢) معاني القرآن وإعرابه: (٤٠٤/٣)

(٣) ينظر: الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي (المتوفى: ٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: د. أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م: (٤٨٠/٢)، (٥١٦/٦). وإنما سقت بيان الطبري رحمه الله لانه كان معاصرا للزجاج زمنا ومكانا وقد ذكر السياق في تفسيره مما يدل على أنه من الضوابط التي التزمها المفسرون في ذلك الوقت في بيان وترجيح المعاني.

(٤) الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (ت: ٧٩٤هـ)، البحر المحيط في أصول الفقه، الناشر: دار الكتبي، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م: ٨ /٥٥

(٥) ينظر: المثني، عبدالفتاح محمود، السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي، إطروحة دكتوراه، إشراف: فضل حسن عباس، الأردن–جامعة اليرموك - كلية الشريعة والدراسات اإلسالمية، ٢٠٠٧م: ص١٤

(٦) بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، أبو عبدالله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م: (٢٠٠/٢).

قاعدة: يراعى السياق في بيان المراد من الكلام، ويؤمن فيه اللبس، ويقدّم السياق القريب ثم البعيد

(تفسير القرآن بالقرآن) وهو من أقوى القرائن في بيان المعنى الصحيح

فللزّجّاج باع في بيان المعاني تبعا للسياق التي وردت فيه، وقد أخذه بنظر الإعتبار، وجعله من مقتضيات بيان المعنى المراد، ففي تفسير قوله تعالى: (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)الأنبياء/٩٥ ذكر أنّ الآية تحتاج إلى بيان؛ لانّ ظاهرها يوهم لبسا، فقال» ظاهر «حرام عليهم أنهم لا يرجعون»، يحتاج إلى أن يُبَيَّن، ولا أعلم أحداً من أهل اللغة، ولا من أهل التفسير بيَّنه، وهو - واللَّه أعلم - أنه لما قال: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) الانبياء/٩٤، أعلمنا أن اللَّه عزَّ وجلَّ قَد حرَّمَ قُبُولَ أعمال الكافرين وبيّن ذلك بقوله: (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)محمد/١، فالمعنى حَرام على قريةٍ أهلكناها أن نَتقبل منهم عملًا؛ لأنهم لا يرجعون، أي لا يتوبون. .»[١] فههنا اجتهد في بيان المعنى معتمدا على السياق، ومن ثم على بيان القرآن بالقرآن.

وكان أحيانا يذهب الى ترجيح المعنى نحويا أو بيانيا تبعا للسياق، نحو تفسيره ل(أن)بأنّها مفسّرة، وأن(لا)على النهي في قوله تعالى: (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ)الرحمن/٨، أي ألا يجاوزوا القدر والعدل .

قال: «ويجوز (أَلَّا تَطْغَوْا) بمعنى اللام، «لأنْ لَا تَطْغَوا" وتكون (أَلَّا تَطْغَوا) على النهي ومعنى «أنْ « التفسير، فيكون المعنى - واللَّه أعلم - ووضع الميزان أي لا تطغوا في الميزان، ويدلّ عليه المعطوف عليه وهو قوله : (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)الرحمن/٩»[٢] وهي الآية التي تنتظم بعدها.

ولا غرو فدلالة السياق من ركائز الترجيح عند المفسرين، بيانا وكشفا للمعنى الذي يلبس على غيرهم.

(١) معاني القرآن وإعرابه : (٤٠٤/٣ - ٤٠٥)

(٢) المصدر السابق: (٩٦/٥)وينظر: (٢٩٦/٥)

المطلب الثالث: الحذف في العربية

قاعدة: القول بالحذف في العربية؛ إن لم يحدث لبس في الكلام وذلك للتخفيف والإيجاز والاختصار، فإن صار إلى اللبس أقرب فلا والقرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليبهم في الخطاب والبيان، وللحذف ارتباط بالسياق الذي مرّ ذكره آنفا، ففيه دلالة على ما يحذف، لذا قيّده العلماء بدلالة السياق عليه. وقد يقع الحذف في كلمة، وقد يقع الحذف جملة.

و به - أي الحذف - قال الزّجّاج وأورده في بيان معاني النصوص الشريفة.

أ) الحذف في الحرف ومن أمثلته ما ورد في «تساءلون» من قوله تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)النساء/١، فأصلها (تتساءلون) على قراءة من قرأها بالتخفيف، «إلا أن التاءَ الثانية حذفت

لاجتماع التَاءَيْن، وذلك يُستثقل في اللفْظ فوقع الحذف استخفافاً؛ لأن الكلام غيرُ مُلْبس»[1] فهنا يذكر علّة الحذف وهي التخفيف جريا على سنن العرب في كلامها، لكن هذا الشرط مقيّد بعدم اللبس، فإن حصل لبس فلا يصار إليه ولا يؤول الكلام على وجود محذوف في غير القرآن.

ب) الحذف في الحركة، وقد يجرى الحذف في الحركة لذات العلّة كما ذكر ذلك في قوله تعالى (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ. . الاية)ال عمران/١٠٤ قال» الكسرة حذفت وأصلها «ولِتكن»وإن قرئت بها؛ لأن الواو صارت مع الكلمة كحرف واحد وألزمت الحذف، و التخفيف أجود وأكثر في كلام العرب[2].

ج) الحذف في الكلمة والجملة، ذكرنا أنّ علّة الحذف هو التخفيف، أمّا العلة الثانية فهي الإختصار والايجاز بأن يقدّر المحذوف من جملة المذكور، فيقدر المحذوف إن دلّ عليه المذكور، فلا يقال بتقدير جملة أو كلمة غير مسوقة في الكلام؛ لئلا يتقول في كتاب الله بما ليس فيه؛ لهذا نجد العلماء قد أولوا لهذه المسألة أهمية كبيرة، فذهبوا الى أنّ الظاهر إن دلّ على المعنى فلا حاجة للتقدير، فاكتفوا به وحسبهم به. وإن كان ولابد من تقدير فمن جملة المذكور، فإن كان للمسألة وجهان إعرابيان، أُخذ بالوجه الذي يحتمله الظاهر أوّلا أو أُوّل المقدّر على المعنى إن كان في الكلام - أو السياق - ما يدلّ عليه.

(١) معاني القرآن وإعرابه: (٦/٢) وينظر: (٢٤٣/١)؛(٣٠٩/١)؛(٣١٨/١)؛(١٨٠/٢)؛(١٨١/٣)؛(٢١/٤).
(٢) المصدر السابق: (٤٥١/١)؛(٣٥٥/٤)

ومن الأمثلة على الحذف في الكلمة والجملة ماجاء في قوله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)ال عمران/١٠٧ قال الزجاج: » وجواب (أَمَّا) محذوف مع القول . المعنى فيقال لهم: (أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) وحُذفَ القولُ؛ لأنّ في الكلام دليلاً عليه وهذا كثير في القرآن، كقوله عزَّ وجلَّ: (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ)الرعد/٢٤ ف(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) والمعنى يقولون: سلامٌ عليكم»[١].

فهنا نلحظ أنّ دلالة السياق جوّزت القول بالحذف، كما أنّ هنالك شاهد من القرآن على المحذوف الذي ذكره في النص المتقدّم في قوله جل وعز(ثمّ يُقالُ هذا الّذي كنتُم بهِ تكذّبونَ) المطففين/١٧ وضابط الزجاج في الحذف استعماله لكلمة «والمعنى» عند تقديره للمحذوف، تحرزا من القول بالمقدّر مباشرة.

وقد مثّل للتقدير من جملة الكلام المذكور –او المنطوق - وذهب إليه، ما جاء في تفسير قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) الزمر/٧٣» قال أبو إسحاق الزّجّاج: والذي قلته أنا - وهو القول إن شاء اللّه - إنّ المعنى(. . وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) دخلوها فالجواب «دخلوها «، وحذف؛ لأنّ في الكلام دليلاً عليه»[٢].

فهنا يذكر الزّجّاج الفعل المقدّر «دخلوها»؛ لوروده في النص، وفيه من السلامة والتحرز من تأويل كلام الله بما لم ينص عليه.

ومنه أيضا قوله تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)القمر/٤٩، قال: »أي كلّ ما خلقنا فمقدور مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه، ونصب « كُلَّ شَيْءٍ « بفعل مضمر، المعنى إنا خلقنا كل شيء خلقناه بِقَدَرٍ .

ويدلّ على هذا(وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ*وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ)القمر/٥٢ - ٥٣ ف(مُسْتَطَرٌ) مفعول من السّطر»

ففي النّص يقدّر الزّجّاج الفعل المحذوف بدلالة المذكورعليه، وبدلالة السياق.

قاعدة: يقدّر المحذوف من كلام الله من جنس المذكور

ومن أمثلة ماحذف، ماجرى على ألسنة العرب من حذف فعل الأمر؛ لأنّ في الكلام ما يدلّ

(١) معاني القرآن وإعرابه: (١/ ٤٥٥)؛وينظر: (٤/٥١)؛(٤/٨٤)؛(٤/١١٤)
(٢) معاني القرآن وإعرابه: (٤/٣٦٤)

على عقده معنى، فقد يرد النصّ حاملا معنى الأمر (إفعل)، فيقدّر ولا يذكر، ففي قوله تعالى: (فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ. .)الأنعام/٣٥

والسُّلَّم مشتق من السَّلامَةِ، وهو الشيءُ الذي يسلمك إلى مصعدك، المعنى فإن استطعت هذا فافعل يقول، وليس في القرآن فَافعَل؛ لأنه قد يحذف ما في الكلام دليل عليه، ومثل ذلك قولك: إن رأيت أن تمضي معنا إلى فلان، ولا تذكر فافعل»[١].

المطلب الرابع: تفسير القرآن باللغة

وهي مقاصد العرب من كلامهم، وأدب لغتهم وتتحصل المعرفة بها سجية وسليقة أو بالتلقي والتعلّم

قاعدة: القول بالأشهر والأفصح من كلام العرب وحمل القرآن عليه، ولا يصار الى الشاذ مع وجود الفصيح والكثير المستعمل، فنجد الزّجّاج يرجّح لغة قريش على غيرها، لأنّ القرآن نزل بها، لذا ردّ على قول بعضهم ا في القراءة من أنها الأفصح ؛ وعلل ذلك مخالفتها لغة النبي صلى الله عليه وسلم، ففي قوله تعالى: (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ)يوسف/٣١، قال: » وزعم بعضهم أنّ الرفْعَ في قولك: (مَا هَذَا بَشَرًا) أقْوى الوجهين، وهذا غلط، لأنَّ كتاب اللّه ولغة رسول اللّه أقْوى الأشياء وأقوى اللغات» .[٢] فرجّح لغة الحجاز على لغة تميم في هذه المسألة؛ لأنّها اللغة القُدمى الجيدة عنده[٣].

قاعدة: تُقدّم لغة قريش على غيرها أداء ومعنى؛ لأنّ القرآن نزل بها

ولاريب أنّ القرآن نزل بلسان عربي مبين، فأشبه خطابه أساليب العرب في خطاباتها، والقول هذا هو ردّ على من أنكر بعض أساليب القران بحجة التكرار مثلا، ففي قوله تعالى: (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)ال عمران/١٨٨ حيث تكرّر الفعل(لاتحسبنّ)، قال الزّجّاج: » ووقعت (فَلَا تَحْسَبنهم) - مكررة لطول القصة ،والعرب تعيدُ إذا طالت القصة في حَسِبتُ وما أشبهها، إعلاماً أنّ الذي جرى متصلٌ بالأوّل، وتوكيداً للأول، فنقول: لا تظنَن زيداً إذا جاءَك وكلمك بكذا وكذا

(١) المصدر السابق: (٢/٢٤٤).
(٢) المصدر السابق: (٣/١٠٨).
(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: (٣/١٠٧ - ١٠٨)

- فلا تظننه صادقاً، تعيد - فلا تظنّ توكيداً -. . فالتكرير أوكد وأوضح للقصة»[١]

لكنّ وإن جرى ذلك في كلام العرب، فإنّ االقرآن كان على الأجود والأفصح بيانا وإيجازا وإعجازا، فإذا كان ذلك كذلك وجب حمله على الفصيح من كلامهم، وهذا ما دفع الزّجّاج الى الإنكار والإستهجان على من قال بالأخذ باللغة وماجاء في الشعر، وإن كان شاذا، بحجة أنّ القرآن نزل بلغة العرب، فقال «وليس ينبغي أن يُحْمل كتاب الله على « أنشدني بعضُهُمْ « ولا على بيْت شَاذ لو عرف قائله وكان مِمنْ يُؤخذ بقوله لم يجز»[٢].

لذا نجده يردُّ الكثيرَ من المسموع ويضعّفه؛ إذا خالف الرواية الصحيحة الفصيحة، فقد ردّ ماحكاه الفرّاء مثلا، من فتحه للام الأمر من قوله تعالى: (وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ)[٣] النساء/١٠٢، بقوله «وحكى الفراء أنّ لام الأمر قد فتحها بعض العرب في قولك لِيجلِس، فقالوا: لَنجْلِسْ ففتحوا، وهذا خطأ. لا يجوز فتح لام الأمر لئلا تشبه لام التوكيد [وهذا تعليل الزجاج] ثم ردّ أيضا على قول البصريين الذين خالفوا القياس، فقال: »وقد حكى بعض البصريين فتح لام الجر نحو قولك: المال لِزَيْدٍ، تقول: المال لَزَيدٍ وهذه الحكاية في الشذوذ كالأولى[أي كما قول الفرّاء]، لأنّ الإجماع والروايات الصحيحة كسر لام الجرّ ولام الأمر، ولا يلتفت إلى الشذوذ، خاصّة إذا لم يروه النحويون القدَمَاءُ الذين هم أصل الرواية، وجميع من ذكرنا من الذين روَوا هذا الشاذ عندنا صادقون في الرواية، إلا أنّ الذي سمع منهم مخطئ»[٤].

وعليه نخلص الى القول بأنّ الزّجّاج كان له ضابط في أخذه وترجيحه لكلام العرب، وكما يأتي:

أولا: أخذه بالأفصح والأشهر من مسموع العرب، خاصة ماوافق القراءة الصحيحة.

ثانيا: لايترك الأمر هملا في الرواية الضعيفة المسموعة؛ إنّما يعلل الضعيف ويبيّن الخطأ، معتمدا في ذلك على الرواية في القراءة، والأثر في التفسير، والقياس في النحو.

ثالثا: عدم تخطئة الأئمة[٥]، فإن كان ولابد من الخطأ، فهو في الرواية التي نُقلت عنهم.

(١) معاني القرآن وإعرابه: (٤٩٨/١)
(٢) معاني القرآن وإعرابه: (٤١٨/٢)
(٣) القراءة على سكون اللام تخفيفا كما علل ذلك الزجاج. ينظر: معاني القرآن وإعرابه: (٩٨/٢).
(٤) المصدر السابق
(٥) وهذا من الأدب الجم الذي كان عليه سمت الأوائل، فلنتفكر.

الخاتمة

بعد أن دونت أبرز القواعد التفسيرية التي التزمها الزّجّاج، والتي أفصحت عن شخصيته وعلمه وتمكنه، أخلص بإيجاز ماتقدم وكالآتي:

• جمع الزجاج بين الرواية الصحيحة وبين اللغة والنحو مع العقيدة السليمة في صياغة قواعد التفسير.

• عدّ الرواية ركيزة في إثبات قواعده التفسيرية

• رفض الزّجّاج القراءة بما وافق العربية إن لم يثبت فيها نقل معتبر، وصرّح بأنّ القراءة بما لا رواية فيه بدعة .

• أعلا من شأن الإجماع واعتبره معيارًا للترجيح.

• قدّم النقل الصحيح على الاجتهاد العقلي .

• رجّح القراءة الأقوى في المعنى، بشرط أن توافق الرسم والإجماع .

• شدد على القول بأن السنّة الصحيحة المرفوعة هي المرجع الأول في بيان معاني القرآن، خاصة في مسائل الاعتقاد .

• رأى أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، واستشهد على ذلك بالآيات المتناظرة في المعنى ولو تباعدت في السور، وقد طبّق منهجه هذا كثيرًا في كتابه «معاني القرآن»، مما جعله من أوائل من مارسوا التفسير الموضوعي.

•اعتمد الزّجّاج في ترجيحه بين الرويات على ثلاثة معايير :موافقة المعنى والسياق القرآني وموافقة رسم المصحف، وعدّ موافقة قواعد اللغة العربية بلا رواية مردودة.